19

غزة، المستحيل بعينه

تمضي الأيام وغزة في خاطري، غزة المحاصرة الحبيسة سبب مجيئي، مع أني أُنذرت بأن زيارتها أمر عسير. نشّطتُ دائرة معارفي في سفارة فرنسا بلد إقامتي ولدى السلطة الفلسطينية ببلدي الأصلي رغم معرفتي بصلاحياتهم المحدودة. تابعت اتصالاتي وارسال فاكس هنا وآخر هناك وانتظار الساعات بل الأيام آملة تحقيق الوعود، هكذا هم أصدقائي ذوو المناصب الرفيعة في السلطة، لا يودون أن يخيبوا أملي فيعلنون لي بكل ثقة أنه في اليوم التالي وعند الثامنة صباحًا ستنتظرني سيارة رسمية مع سائق أمام البناية لتقودني إلى معبر "ايرتز". هم بالتأكيد يتفهمون تمامًا رغبتي العارمة بالتوجه إلى غزة لأرى عائلتي... لكن، في اللحظة الأخيرة وفي وقت متأخر من الليل اتصلوا بي ليخبروني بأن الإسرائيليين لم يرسلوا التصريح بعد. عليَّ بالتحلي

بمزيد من الصبر إذًا، غدًا، بعد غد، بعد بعد غد... سيأتي السائق وينتظرني بكل التكريم الواجب واللائق بصداقتنا القديمة. يا لأصدقائي المساكين في السلطة، أظن حقًا أن صلاحياتهم ليست أكثر من صلاحياتي! لم يكن الوضع عند الفرنسيين بأفضل حالًا، هم كذلك يخبرونني بأنهم يتابعون الاتصالات مع السلطات الإسرائيلية للحصول على تصريح... تصريح لن يهلّ عليَّ أبدًا. كنت أنتظر وأنتظر... آمل ويخيب أملي... لكن هذا التصريح الملعون لم يأت أبدًا.

في هذه الأثناء قرر ساري إقامة حفل في بيته أو ما سماه "أمسية كوكتيل" دعا إليه أصدقاء عرب وأجانب ومنهم صحافيين. قرر كل منا تحضير ما يحبّ من أطباق. ولا يكف ساري عن إدهاشي بطاقته التي لا تنفذ! هذا الصباح ذهب مصطحبًا أنيس وعلا للعمل، وبمجرد إيابه حوالي السادسة مساءًا جرى لتحضير الأطباق.

أما أنا فحمالة للهموم والقلق وبحاجة للوقت. بيد أني اليوم وجدتها فرصة للهرع إلى قلب المدينة، إلى هناك حيث أشعر بالراحة والصفاء. أخرج من البيت وأسير باتجاه الطريق المعتادة، أشير بيدي لأوقف الميكرو المعهود "فورد"، وأنسلّ بين الراكبين بثقة تفوق تلك التي غمرتني في المرة الاولى. أستمتع بقربهم وحضورهم المحبب وأتبادل الأحاديث معهم حول كل ما يهمّ وما لا يهمّ: التسوق، المستشفى وحركة المرور... بالتأكيد لا نغفل ذكر هؤلاء الإسرائيلين الأرذال وحواجزهم وكل ما يفعلونه لمنعنا من

العيش حياة طبيعية... نتناقش ونحكي عن أمور تافهة ربما إنما تشكّل جزءًا من حياتنا، استغل هذه اللحظات المؤقتة التي أتشاركها معهم، مع أهلي... ثمّ، مثل معظمهم، أنزل من الميكرو في المحطة الأخيرة عند "باب العمود" المدخل الرئيسي للمدينة القديمة. أتمشى وأتسوق وأبحث عن الملوخية التي قررت تحضيرها للضيوف، لا شيء أسهل من هذا هنا إضافة إلى أنني أحب مغزى التسمية وما تعنيه عند الفلسطينيين، إنها كلمة السر وعلامة انتماء للشعب الفلسطيني. اشتريت ثلاث باقات طازجة من فلاحة عجوز منحنية الظهر، ضممتها بكل حنان كما لو كنت أحمل رضيعًا. أترك سور المدينة ورائي وأنا فخورة بأوراقي الخضراء وأشير بيدي من جديد للسرفيس "فورد" وأنا أنادي: بيت حنينا.

أشعر بالرضى عن نفسي في هذا المكان، أنا من هنا بلا أدنى شك وأحاول أن أبدي ذلك بكل الوسائل للآخرين، كل الآخرين. أهلي كما الجنود الأعداء الذين يبثون سمومهم كشوكة سامة، ومع ذلك نتعلم كيف ننزلق من بينهم دون أن نلمسهم أو نصطدم بأسلحتهم الاستفزازية، وكم نجحت اليوم على الأخص في مسعاي وأنا أنشر رايتي الخضراء My green Card (الغرين كارد) خاصتي!

تحتدم منافسة شديدة بيني وبين ساري، فهو طباخ ماهر مثلي. وتمر الأمسية على ما يرام ويُعجب الكل بملوخيتي اللذيذة ويستمتعون كذلك بدجاجة ساري الشهية بالزيتون.

حضر صحافيون فرنسيون وألمان كلهم يتكلمون العربية ويهتمون بالمجتمع الفلسطيني، وكان هناك أساتذة جامعة فلسطينيين وفنانين وأدباء. كنا نتناقش ونتبادل الانطباعات والأفكار بكل هدوء وبعبارات موزونة تماما وتحت السيطرة. كان على الأمسية أن تمر على خير، وقد مرت! تفادينا كل القضايا الحسنة أو السيئة، فما هو حسن لبعض قد يكون سيئًا لبعض آخر... الأمر يعتمد على الجهة التي تثيرها!

ما زلت بالانتظار، تمر الأيام وأدرك على الرغم من اتصالاتي ومعارفي بأنني لن أذهب لغزة.